البحث الاثنوجرافي الذاتي

يستخدم الباحثون انفسهم احيانا كموضوع لبحوثهم . وبهذه الطريقة , يستطيع الواحد منهم ان يقوم باجراء مشروع تاريخ شفاهي باستخدامه لنفسه كراو او قاص . مثال لك , انك ان كنت مهتما بخبراتك الشخصية الخاصة بك وكيف تتخذ وضعها داخل سياق ثقافي معين , فقد يساعدك هذا الاتجاه ( اي كتابتك عن نفسك ) في تحقيق اهدافك . وكثيرا ما ينتفع الباحثون الكيفيون من البيانات الواردة في السير الذاتية التي يكتبها الفرد عن نفسه بطريقة ضمنية او بطريقة صريحة علنية . ومن امثلة ذلك ان الباحثين الميدانيين كثيرا ما يحتفظون بدفتر يوميات , او بمفكرة يومية اخلاقية , او مفكرة يومية يسجلون فيها خواطرهم , ومشاعرهم , وانفعلاتهم وما الى ذلك . وبهذه الطريقة تكون البيانات المستمدة من السير الذاتية التي كتبها اصحابها جزءا من عملية البحث . وبالاضافة الى ذلك , فقد تؤثر بعض وجهات النظر الفكرية والابستمولوجية على الباحث ليضمن بحثه البيانات المستقاة من السيرة الذاتية بطريقة صريحة . وعندما يستعمل الباحث ابستمولوجيا نقطة الاستشراف ( وهي احدى نظريات المعرفة التي تذهب الى تعدد الحقائق ) وبالصورة التي صاغتها بها ساندرا هاردنج, ومما يعني تبني " الموضوعية الصارمة " , فلابد ان يكشف الباحث عن معلوماته الخاصة بسيرته الشخصية وعن مدى اسهامها في عملية بناء المعرفة . وتوجد امثلة كثيرة للباحثين الذين يدمجون خبرتهم الشخصية في مشاريعهم , بما يتضمنه هذا التصرف من فرضهم لمفاهيمهم المستمدة من خبرتهم الحياتية الشخصية على بياناتهم , ويعد البحث الاثنوجرافي الذاتي اسلوبا خاصا من اساليب التاريخ الشفاهي يقوم فيه الباحث – صراحة – ببناء المعلومات عن طريق استخراجها من تاريخ حياته الشخصي . كما نلاحظ – فضلا عن هذا – ان كثيرا من الباحثين يمزجون كتابة سيرتهم الذاتية بالخيال القصصي اثناء كتابتهم النهائية لابحاثهم الاثنوجرافية الذاتية . وهكذا تتيح هذه الطريقة للباحثين ان يفرغوا جوانب عملهم في قالب روائي وان يخلقوا شخصيات روائية من عندهم .

بيد انه لا يكفي القول بان البحث الاثنوجرافي الاتي هو مجرد مقابلة تاريخ شفاهي تجريها مع نفسك . اذ ثمة فارق رئيسي بين التاريخ الشفاهي والبحث الاثنوجرافي الذاتي . ويتمثل هذا الفارق في ان المقابلة التقليدية للتاريخ الشفاهي مبنية على الكلام ( وهو السرد اللفظي الي يتم تسجيله ) بينما يكون البحث الاثنوجرافي الذاتي مبنيا على الكتابة . ففي حالة استخدام المرء لنفسه بوصفه مصدر البيانات , تحل الكتابة محل الكلام . والكلام والكتابة نموذجان مختلفان تماما من نماذج الاتصال , ومن ثم فانهما يؤثران تاثيرا عميقا على البيانات المنتجة . فالناس يتكلمون باسرع من قدرتهم على الكتابة , ويقدمون مزيدا من التفاصيل , كما يقل احتمال ان يمارسوا الرقابة على انفسهم وهم يتكلمون . بالاضافة الى لك , فان انماط الحديث , والايماءات, ونبرة الصوت , وسائر الفروق الدقيقة الاخرى في عملية السرد التي سبق ان ناقشناها من قبل , يصبح لا وجود لها في عملية الكتابة التي يحتفظ فيها المؤلف بالسيطرة التامة وقد يضع فيها علامات التاكيد بطريقة تختلف عما اذا كان يتكلم . والان بعد ما تاملنا الفارق الرئيس بين التاريخ الشفاهي القائم على دراسة سيرة الحياة التي يكتبها شخص اخر غير صاحبها والتاريخ الشفاهي القائم على السيرة الذاتية التي يكتبها الشخص عن نفسه , والان نتامل بمزيد من التدقيق نوع عملية الكتابة التي تشكل البحث الاثنوجرافي الذاتي .

ان مصطلح البحث الاثنوجرافي الذاتي الى الكتابة عن الشان الشخصي للكاتب وعلاقته بالثقافة . وهو جنس من اجناس الكتابة والبحث له طابع السيرة الذاتية , والذي يكشف للقارئ عن طبقات متعددة من الوعي .

تتوسع "اليس" في استعمال هذا التعريف لكي توضح ثراء هذه الطريقة , وتوضح القابلية للتغير والاختلاف في اشكال العرض والتصوير التي يمكن لهذه الطريقة ان تنتفع بها , وهي الاشكال التي تتضمن الكتب , والمقالات , والقصائد , والمسرحيات , والقصص الطويلة , وشتى انواع العروض ( كالبانتومايم والرقص الايقاعي مثلا ) .

لعلك تتساءل : ما هو البحث الاثنوجرافي الذاتي , واجابتي المختصرة هي انه : عبارة عن عناصر من البحث , والكتابة , والقصة , والطريقة التي تربط كل ما هو متعلق بكتابة السيرة الذاتية وكل ما هو متعلق بكتابة السيرة الذاتية وكل ما هو شخصي بما هو ثقافي , وما هو اجتماعي , وما هو سياسي . وتقوم اشكال البحث الاثنوجرافي الذاتي بابراز ما هو محسوس وواقعي من الاعمال , والعواطف , والتجسيدات , والوعي بالذات , والاستيطان ( اي فحص المرء لافكاره ودوافعه ومشاعره ) , وهي الامور التي يتم تصويرها في الحوار , والمشاهد , وخلق الشخصيات الروائية وحبكة القصة . وبهذا الشكل , يتطلب البحث الاثنوجرافي الذاتي استعمال ما هو متبع في الكتابة الادبية من اعراف ومصطلحات .

وتتيح لنا هذه الطريقة استعمال خبراتنا , وافكارنا , ومشاعرنا , وعواطفنا الشخصية كبيانات لمساعدتنا في فهم العالم الاجتماعي . ومن خلال هذا المنحى نكون قادرين على ربط قصص حياتنا الشخصية بالمجتمع الاكبر , والذي هو بمثابة ستارة المسرح الخلفية المنصوبة وراءنا والتي نعايش كل شيء ونحن امامها . كما ان بامكاننا ان نفرغ جوانب مشروعنا في قالب روائي من اجل بناء القصة التي نرويها . ويستطيع هذا النوع من البحث ان يكون مصدر قوة للباحث – المبحوث ( اي : للباحث الذي يبحث حالته ويروي قصته الشخصية ) , كما انه يوقظ وعينا الذاتي بانفسنا ويستنهض ملكة التفكير النقدي بداخلنا . اذا اتفقنا على ذلك , فان المزايا الكامنة في هذه الطريقة تحمل بداخلها عيوبها ومثالبها الخاصة بها .

ان عملية التاريخ الشفاهي تعد عملية مرهقة عقليا وانفعاليا . فعند اجراء مقابلة تاريخ شفاهي لا نستطيع ابدا ان نكون مستعدين استعدادا تاما لما قد يفاجئنا به الراوي . كما اننا لا نستطيع ان نعد رواتنا الاعداد الواجب لكافة الانفعالات الممكنة التي قد تتدفق من جراء روايتهم لقصة حياتهم . ويصدق هذا الكلام علينا عندما نستخدم انفسنا كموضوعات لبحثنا .

ان الانشغال مع ما يجري لنا لابد ان يكون انشغالا بدنيا انفعاليا وعقليا . فمن خلال البدني والانفعالي خصوصا , نتحصل غالبا على المفتاح الاول الذي يدلنا على ان امرا ما يحدث وانه قد يكون جديرا بان نسعى للكشف عنه . لذلك فان ما نشعر به من ضيق , او انزعاج , او ضجر , او حزن , او اثارة , او انتصار , او رقبة متوترة , اوعيون ملتهبة من الحك والهرش او احساس بالهدوء والصفاء , نقول : ان ايا من هذه الامور يعد هو الاخر بيانات تببهنا الى امر ما. وقد تتسبب هذه العملية في احداث درجة ما من الكرب مما يجعل من وجود مظاهر المساندة النفسية في المكان ( كوجود احد المشرفين , او احد الزملاء , او احدى جماعات المساندة ) امرا مهما .

من الممكن ان تكون الانفعالات الحادة التي تظهر اثناء عملية البحث بمثابة علامات تدل على بيانات مهمة نحتاج الى بلورتها وتجسيدها , ومحاولة فهمها . كما ان هذه اللحظات تمثل الاوقات التي قد نحتاج فيها لمساندة نفسية اضافية لان الضغوط الموجودة في عملية البحث قد تكون اكثر مما نقدر على مواجهته بشكل مريح وحدنا . وهكذا يقوم تتبع المرء لانفعالاته اثناء عملية البحث بكل من دور توفير البيانات ودور الاشارات التي يتلقاها الباحث والتي تدله على الطريقة التي يتبعها في معالجة عملية كتابة البحث الاثنوجرافي الذاتي . كما ان عملية تحليل البيانات قد تتطلب هي الاخرى مساعدة خارجية . ونظرا لان المشرفين المشاركين في تقديم المساعدة للباحث في كتابة البحث الاثنوجرافي الذاتي يختلفون في ادوارهم عن الادوار التقليدية في الاشراف والمبنية على التجرد والحياد المزعوم , فلا بد من الانتفاع بهم ومن اشراكهم في البحث . فالفرد او الافراد الذين يدعون لمساعدة الباحث في قياس هذه العملية وتفسير هذه البيانات لابد من الانتفاع بهم في هذه العملية , وذلك لان العملية تتصل – في نهاية الامر – بحياة هذا الباحث , والذي قد يكون صديقهم او زميلهم . ويستطيع الحوار الذي يجريه مع الباحث اطراف من الخارج ( كالمشرفين او الزملاء ) يستطيع مساعدته في البقاء في حالة استقرار كما يساعده على تهدئة شيء من الهواجس التي تنتابه بخصوص صدق البحث والتي كثيرا ما تثار عندما يستعمل الباحثون بيانات شخصية . يضاف الى ذلك ان بامكان الطرف الخارجي – وبشرط ان يكون ملتزما بهذا المشروع – ان يضيف قدرا من التركيب والتدقيق الى عملية تحليل البيانات , فقد يتمكن من مساعدة الباحث على " الرؤية " بصورة اكثر اتساعا , لانه من قيمة هذه البيانات ( بحسن الانتفاع بها ) , كما يزيد من قيمة ما يظفر به الباحث من هذا المشروع فيما يتصل بوعيه بنفسه .

وبالامكان كذلك ان يمثل البحث الاثنوجرافي الذاتي تحديا لك , حيث انك تعرض خبراتك الشخصية امام " عموم الناس " , وقد تتعرض بسبب ذلك ايضا للفحص وللتمحيص . معنى ذلك – بعبارة اخرى – ان هذه الطريقة تتطلب مستوى ما من القدرة على التعرض للنقد والطعن . وتبين لنا المؤلفة كارولين اليس كيف اضطرت الى معالجة هذه القضية عندما قامت بكتابة بحث اثنوجرافي ذاتي .